طلقة طالق

بقلم / رحاب أبراهيم عجم

الحياه كتلة من السعادة والألم

فكما سلبتنا ستُعطينا

تلك الطلقة لم تكن الرصاصة التي قتلت أمي و التي لم ترتد إلى صدر أبي ، بل التي أصابتني أنا، حين نطقها أبي لأمي "أنتِ طالق" وكنت أنا بينهما صغيراً لا أفهم ما الذي قاله أبي لأمي و ما الأثر الذي ستخلفه تلك الكلمة على الجميع ، و إن تأثر بها الجميع فهم على أنقاضها بنوا مستقبل آخر أما أنا فقد قُتلت بها في ذلك الحين ، قُتلت على مدار الأيام التي عشتها بقليلٌ من أم وقليلٌ من أب، التي احتجت فيها أن أجد أمي و أبي سوياً بجواري في قراري الذي أود أخذه بمشورتهما ونصيحتهما لي ، الأيام التي تمنيت فيها أن أعيش ببيت يُسمى بيتي لأنه لأبي و لأمي، فأنا تقريباً مكثت في بيت خالتي بعد أن آلت الظروف إلى بيتها، و لا تسيئوا الظن بها، فـ خالتي سيدة طيبة و جميلة، اهتمت بي جيداً بجانب أولادها، اعتنت بي كأم حتى و لم تستطع أن تكون أمي إلا إنني أحبها وأقدر ما فعلته لأجلي، لولاها بعد الله لكنت مُشرد أو مجرم، قبل ذلك كنت أعيش مع جدتي زينب، أو كما أقول لها دائماً "سيتي زينب"، احتوتني جدتي كما لم يحتويني أو سيحتويني أحدٌ من قبل، دللتني بحب و حنان، كانت تطعمني بيديها و تلاعبني رغم سنها الكبير، كانت ترعاني في مرضي أكثر مما يجب عليّ أن أرعاها، كانت حقاً كأمي و لكن مهما كان ستظل للأم الحقيقيه رائحة وملمس نشتاق لها نحن الصغار، وكنت قد قرأت عن موضوع يشبه ذلك ، أن الصغار عندما يولدون يكون الرابط بينهم و بين أمهاتهم هي رائحتهم، يتعرفون عليها من رائحتها، وأرى في هذا كل العجب أن يكون الرابط مميز كأنه رابط سحري...وأعتقد إنني أشتاق لرائحة أمي حتى الآن

جدتي الحبيبة لم تدم كما كنت أعتقد، ماتت و أنا في الثامنه وبت وحيداً وحزيناً بدونها وخصيصاً عندما لم تستطع أمي أخذني معها إلى بيتها الجديد في السعودية، فهي كانت تعيش هناك مع زوجها الجديد نظراً لعمله في هذه البلد، فذهبت بعدها إلى بيت عمي، و لم أذهب إلى بيت أبي لأنه أيضاً في بلد آخر، ودائماً مشغول جداً و قال أنه لن يكون قادر على الأهتمام بي وحده في بلد غريب

في بيت عمي باتت وحدتي مضاعفه وأنا أعيش كالغريب بينهم وذلك لأن زوجة عمي كانت لا تطيقني ولا تطيق وجودي معهم، ولا تحبذ التعامل معي أبداً وكأني جرثومة، أعتقد أن سبب معاملتها تلك إنها كانت تراني ابن مطلقة وكأن أمي إمرأه سيئة، في تلك الفتره كرهت نفسي وازداد شعوري بالنبذ، من الجميع، من والدي الذي لن يستطيع الأهتمام بي و من والدتي التي لن تستطيع أخذي معها لأجل زوجها و زوجة عمي التي لا تطيقيني، و بين أصدقائي الذين يعودون لبيوتهم بعد الدوام المدرسي، يعودون لأحضان ذويهم و أنا لا

أتدرون؛ كنت أشتاق لقول كلمة أمي و كلمة أبي، كنت محروم من نطقها وهما على قيد الحياه، تركوني وحدي وكأني يتيم

كنت حزين في البداية ولكن عندما صار عندي ثلاثة عشر عاماً بدأت أغضب على أبي وأمي، لتسائلي المتواصل لنفسي؛ لِما فعلوا بي ذلك؟، لماذا يطردونني من حياتهم بعد أن طالت السنوات وتغيرت الظروف، وحتى إن لم تتغير، عليهم أن يفعلوا شيئاً ما ليثبتوا قبولهم وحبهم لي، لا أن يتركونني هكذا!!

غضبت ولكني لم أكرههم وأسخط عليهم أكثر من ذلك اليوم الذي عرفت فيه أنه أصبح لي أخ من أمي، و زواج أبي، فيبدو إنهم يعيشون حياتهم دون تأنيب ضمير اتجاهي وأنا لا أدري بل و آخر من يعلم، وبدأت نفسي تتأكد حقاً أنهم قد نبذوني من حياتهم وكأني أنا الماضي الذي تركوه ولا يريدوا أن يرجعوا له، تركوني كالذكرى القبيحة التي تذكرهم بفشلهم

تبدلت بعدها وأصبحت عنيفاً، أتشاجر مع الجميع، والأيام التي كانت تأتي فيها أمي إليّ؛ أرفض مقابلتها وبكل الألعاب و الملابس التي كانت تحضرها لي، و إن تركتها كنت أكسرها و أمزقها

وأصبحت زوجة عمي لا تطيقني أكثر وتراني خطراً على أطفالها وعبئاً ثقيلاً يزداد ثُقلاً كل مره أكبر فيها، حتى جاءت خالتي في يوم وأراحتها مني وأراحتني أنا أيضاً، فـ في مره من المرات عندما جاءت لتزورني بعد أن رجعت من دبي هي و أولادها لمشكلة في الإقامه ، ورأت حالي هذا و عدم حب زوجة عمي الواضح لي، قررت أن تأخذني أعيش معها و مع أولادها، وتبدل حالي من سيء إلى جيد، من العنف و اللامبالاه إلى الهدوء و الاستقرار النفسي، وعادت درجاتي تزداد بعد أن تدنيت وكدت أن أرسب في مرحلتي التعليميه المتوسطه

ورغم استقراري النفسي إلا إني كنت لازلت أرفض رؤية أمي، حتى سمعتها تبكي لخالتي عن اشتياقها لي وألمها من رفضي لرؤيتها، فـ رق قلبي لها وندمت، فـ في تلك اللحظه شعرت كم هي تحبني حقاً وهذا عوضني ؛ "صِدقها" ، و لكن كما تقول دائماً الظروف تمنعها من البقاء معي دائماً

بعدها أصبحت أقابلها، وتعرفت على أخي أيضاً وأحببته سريعاً، وشعرت بالأخوه تجري في دمي مع إنه ليس من صلب أبي

تعودت على حياتي الجديدة وأحببتها بفضل خالتي التي كانت تعاملني كولد من أولادها، صحيح أن هناك أشياء كانت لا تستطيع أن تفعلها لي، إلا إنها جعلتني أحب

نفسي و أتقبلها و ألا أشعر بالنبذ مره أخرى، وهكذا بنيت لي مستقبل على أنقاضي المتوفاة وقررت أن أعيش على الباقي مني كما هم فعلوا

من الأيام التي لم أنساها و لن أنساها أبداً، اليوم الذي أتى فيه زوج خالتي إجازه، قلقت وتوترت وذلك لأنني توقعت رفض زوج خالتي لي كما فعلت زوجة عمي، إلا إنني كنت مخطىء، فأنا لم أفهم قيمة الصداقة إلا على يديه، صادقني كما كان يصادق أولاده، شعرت معه بالأبوه التي حُرمت منها على يد أبي، أيضاً علمني كيف أصادق أقراني، علمني كيف أحلق مع التيار لا ضده، علمني كيف أنال راحتي؛ فكان ياخذنا للمسجد نصلي كل صلاه وكان يشجعنا على حفظ القرآن الكريم وما إن ختمته كله حتى كافئني بالدراجة التي كنت أحلم بها، كنت أشتاق له دائماً في غيابه

وجود عمي محمود زوج خالتي أغناني عن وجود أبي الذي لا يشعر بي ولا يشتاق إليّ، يهتم فقط بالأموال التي ُيرسلها لي كل شهر حتى يرتاح ضميره، و يرى أن هذا هو الاهتمام و هذه هي التربية، وهو لا يدري عن الاهتمام شيء، لا يدري إنني أرد رؤيته معي، أريد صداقته أكثر من أمواله تلك، أريده أن يكون أبي لا بنك يرسل لي الأموال فقط، لكنني تعودت على عدم رؤيته رغم اشتياقي له، فأنا لم أراه غير مرات معدوده على أصابع اليد الواحده

وفي شبوب مراهقتي طلب مني أبي أن أسافر له لأقضي الإجازه عندهم لكنني رفضت بشده، خفت من الحياه التي يعيشها أن ترفضني كما رفضتني غيرها من قبل وأيضاً لأنني أنتظر قدوم عمي محمود...أصر والدي على معرفة سبب رفضي، فقلت له إنني لا أريد أن أفوت عودة عمي محمود وإنني قلق من رفض زوجته لي

شعرت بصمته الحزين عبر الهاتف وشعرت بوجعه عندما فضلت عمي محمود عليه، أعتقد أن ذلك جعله يشعر كما شعرت من قبل

ظننت أن الأمر سينتهي عند هذه المكالمة وسيستمر الحال كما هو عليه، إلا إنني فوجئت به بعد أسبوع أمام البيت، زارني وتحدث معي ولا أنكر إنني فرحت عندما شعرت باهتمامه بي، وليس ذلك فقط بل عندما أخبرني إنه لن يسافر إلا بعد شهر سيقضيه معي وأنه يريد أن يكون قريب مني وأن أثق به...شعرت بصدق كلماته و لمعة عينيه، ومن هنا نشأت رابطة بيني و بين أبي، وأصبح أبي صديقي وصرت أزوره أنا أيضاً وتقبلتني زوجته وعاملتني معاملة جيدة

أنا جاسر عبدالله الطفل الذي عانى فقد والديه وهما على قيد الحياة، أحببت اليوم و صار الحب يسري في عروقي مجرى الدم، أحببت فتاة لا أستطيع تفريقها عن القمر بل عن السماء بأكملها، أحببتها رغم خوفي، أحببتها رغم التجربه الفاشله التي عاصرتها مع والديّ، أحببتها وسطوة الحب أرغمت قلبي الضعيف أمامها، فـ حبي لها غير أي حب، لا أشعر هكذا إلا في حضرتها هي فقط، أتمناها زوجة لكني قلق

ترددت في طلبي لها للزواج كثيراً حتى كدت أن أخسرها بغبائي وخوفي من تجربة واحدة فاشلة؛ وحولي الكثير من التجارب الناجحة، كيف أقلق من مستقبلنا سوياً و أنا لست أبي وهي ليست أمي، ولن يكون قدري كقدرهما، فـ لكل إنسان قدرمختلف

بددت كل خوفي ولم يبقى إلا خوف واحد فقط هو فقدانها، فأخذت قراري وطلبتها بشجاعة وبكل الحب الذي بداخل قلبي لها، وافقت وعلمت بعدها إنها كانت تبادلني شعور الحب منذ زمن ويا لسعادتي عند معرفتي

ويا لسعادتي الآن بأبنائنا "أنس شمس وحور"

أبنائي الأعزاء، أبنائي من حبيبتي، المرآه التي رأيت فيها تمسك جدتي بي، و شممت فيها رائحة أمي الغائبه ولمست فيها حنان خالتي التي اعتنت بي وأبي وكل أحبائي إن لزم الأمر، ها أنا أكتب لكم ما لن أستطيع قوله كبراعتي في كتابتة ، أنا جاسر عبدالله والدكم الذي سلبته الحياه أشياء امتلكها آخرون و أعطته أيضاً ما لم تعطيه لغيره ....هذا أنا والدكم